

# كانتيمير والحضارة الاسلاميَّة

فِيرجيل كانديا

ترجمة: د. فؤاد شاهين

الاوروبي . لقد ترجم (تاريخ الامبراطورية العثمانية) ونشر بالانكليزية والفرنسية والالمانية في فترات عدة، ولاقى انتشاراً واسعاً، فقرأء وذكر ونوقش من قِبَل كبار العلماء؛ أما الكتاب الثاني (نظام الديانة المحمدية) فلم يجز التعرف عليه كفاية في طبعته الروسية لعام ١٧٢٢ أو بترجمته المجتزأة الى الرومانية عام ١٩٢٧، لذلك بقي مجهولاً في أوساط المستشرقين الاوروبيين وحتى في أوساط الاختصاصيين الروس الذين لم يهتموا به إلا قليلاً وحتى بدون قناعة كافية. مع ان هذا الكتاب هو عرض أولي شامل للحضارة الاسلامية لم ينشر مثله في الروسية، وهو يشكل فضلاً عن ذلك أحد الأعمال العلمية الرئيسية في عصر بطرس الأكبر. ان العرض السريع لما لقيه هذا الكتاب يشكل مفتاحاً للحالات القليلة التي استخدم فيها من قبل مستشرفي العالم أجمع .

بعد نشره بقليل، قدم (نظام الديانة المحمدية) للأوساط العلمية الاوروية من قبل جوهان بيتر كول Johan Peter Kohl، الذي كان يدرس علوم الدين والادب في أكاديمية العلوم في سان بطرسبورغ، وذلك في

لا تزال هناك ثغرة حقيقية قائمة منذ زمن بعيد في اوروبا الحديثة فيما يتعلق بمعرفة الاسلام: وهي تدور خاصة حول دور الامير ديمتري كانتيمير (١٦٧٣ - ١٧٢٣) كرائد للدراسات عن الحضارة العربية في روسيا في بداية القرن الثامن عشر. اننا نعلم ان العلامة الروماني، الذي أجبرته الاوضاع السياسية للجوء الى بلاط القيصر بطرس الأكبر بعد معركة ستانيلشتي الخاسرة (١٧١١)، قد وجه خلال القسم الاخير من حياته انتباهاً خاصاً للدراسات الشرقية. ان أهميته في هذا المجال تظهر في مؤلفين هامين هما: Incrementa atque decrementa aulae otho-manicae (1716) الذي هو عبارة عن تاريخ للامبراطورية العثمانية منذ نشوئها حتى حكم محمد الرابع، ثم De muhammedana religione, deque politico regimine (1719) وهو كتاب طبع الجزء الاول منه- الوحيد الذي أمته الكاتب- في سان بطرسبورغ عام ١٧٢٢ باللغة الروسية.

ان هذين الكتابين يكفيان لاعطاء الكاتب لقب المستشرق ليس فقط في روسيا، بل وعلى المستوى

المؤلف الذي يحمل عنوان Introductio in historian et rem slavorum imprimis sacra (1729). ان كول يمتدح فيه الكتاب «المعد بعناية فائقة والذي هو أهل للثقة». كذلك فإن عرض كتاب كول كان فرصة جديدة لذكر (نظام الديانة المحمدية). الا ان كاتباً روسياً معاصراً لكانتيمير - وهو منافسه، سافا فلاديسلافوفيتش راغوزينكي - سخر من «الاقاصيص المحمدية» التي اهتم بها الامير. هذا وقد منع السينودوس الروسي (المجمع الكنسي) توزيع هذا الكتاب بعد موت مؤلفه.

الا ان كتاباً معاصرين لكانتيمير فكروا بترجمة مؤلفه الى الالمانية ولا تزال بعض أجزاء (النظام) المترجمة الى الالمانية في محفوظات أكاديمية برلين للعلوم.

وفي بداية القرن التاسع عشر، ترجم العلامة البلغاري سوفوروي فراكانسكي Sofronij Vracanskij كتاب كانتيمير الى لغته. ان هذه النسخة البلغارية رغم انها كانت «من أوائل الاعمال الادبية الرفيعة المترجمة الى اللغة البلغارية الحديثة منذ بداية هذه الادبيات»، فقد بقيت مجرد فضولية ثقافية.

ان (النظام)، كما هو متوقع، ذكر في الدراسات التي جرت عن عصر بطرس الاكبر. لقد اعتبر الكتاب عام 1855 كأثر نادر يستحق ذكره في مجلة ثقافية. ولكن، اذا لم يجتذب الموضوع الغريب للكتاب المؤرخين الروس في القرن الثامن عشر، فقد كان بإمكانه على الأقل ان يلفت انتباه المستشرقين لأنه دشن، كما رأينا، الدراسات العربية في روسيا.

لا يوجد، على حد علمنا، أية دراسة روسية أو سوفيادية حول (النظام). ان برتولد الكبير V.V. Berthold في مؤلفه الاساسي المخصص (لاكتشاف آسيا، تاريخ دراسة الاستشراق في اوروبا وروسيا)، رغم انه يخصص فصلاً كاملاً لاهتمام بطرس الأكبر بالعالم الاسلامي، لا يأتي على ذكر كتاب كانتيمير. بالنسبة للأكاديمي كراكوفسكي، ان كتاب الامير المولودافي، الذي يذكره في دراساته المتعلقة بتاريخ العلوم العربية الروسية)، من

المحتمل ان يكون قد كتب تحت طلب بطرس الاكبر. ان المستعرب الكبير يلاحظ فرادة موقف كانتيمير تجاه الاسلام، وهو يتناقض مع أدبيات الأخبار الهادفة المناهضة للاسلام عند البيزنطيين او البولونيين - الروس في القرن السادس عشر، مع العلم ان الامير لم يستطع عدم التأثر كلياً بمثل هذه الادبيات، ولكن يبدو ان كراكوفسكي لم يتوقف طويلاً على كتاب «النظام» (وإلا لكان علمه واهتمامه بالامور العربية قاداه بلا شك لاعطائنا ملاحظات أكثر وأعمق بشأنه)، ولكن يعود له الفضل بالاحكام الاولى القيمة التي كونتها العلوم السوفيادية تجاه مؤلف كانتيمير هذا، اما سميرنوف Smirnov في (دراساته عن تاريخ البحث حول الاسلام في الاتحاد السوفيادي) فيعطينا وصفاً موجزاً (للنظام)، مع الملاحظات التالية: «اذا تجاوزنا العرض المقتضب وعدم تسامح روح الكتاب وتوقفنا على دقة المعلومات التي يعطيها وعلى التفسير الصحيح للوقائع، فانه لا يعتبر اقل شأنًا من المؤلفات الغربية في عصره عن الاسلام».

وفيما يتعلق بالثقافة الرومانية، فان الكاتب كوستاش نغروزي C. Negruzzi كان يعرف الكتاب وكان يود عام 1839 ان يترجمه من الروسية لشره في الاعمال الكاملة للامير كانتيمير، التي عزم على المضي بها بالاشتراك مع ميخائيل كوجلانيشانو. ويذكره الفيلسوف هاسدو B.P. Hasdeu، الذي كان يملك نسخة عن «النظام» (هي اليوم في مكتبة اكاديمية بوخارست)، وذلك في كتابه عن (تاريخ التسامح الديني في رومانيا)، عندما يتكلم عن المكان الطاهر او المطهر للعبادة، فيقول ان المسلم يستطيع اقامة الصلاة في اي مكان من هذا النوع، حتى خارج المعبد. من المؤكد ان هاسدو قد قرأ كتاب كانتيمير بعناية. وهناك فيلسوف علامة آخر، اوفيد دانوشيانو Densusianu، ادخل بشره رسالة لكانتيمير موجهة عام 1714 لأحد اعضاء اكاديمية برلين، الى الادب الروماني معلومات صحيحة فعلا حول نية الامير في كتابة كتاب عن الحضارة الاسلامية.

لكن كتب تاريخ الادب الروماني تكاد لا تذكر هذا

مدى مساهمة كانتيمير في التعرف على الحضارة الاسلامية؟  
انها في البداية نجدها في موقف هذا العلامة تجاه  
الاسلام، وهو موقف يمثل أول رؤيا عقلانية لمثقف  
مسيحي من مذهب شرقي في العصر الحديث بالنسبة  
للعقيدة الاسلامية، ولثقافة التي نتجت عنها. وهذه  
الرؤيا ليست فقط نتيجة العلم والتفكير، بل ثمرة  
الشهادات لأوروبي قضى ٢٢ سنة من حياته في  
القسطنطينية، ولعب دوراً فاعلاً في المجتمع العثماني. لقد  
حصل كانتيمير إذن على معلومات طازجة مشوقة  
بملاحظات دقيقة قام بها شخصياً، وقد جذبت أيضاً المسائل  
الفلسفية والتاريخية والأثرية والاثنوغرافية.

ان معالجة مصادر «النظام» - التي لم يذكرها المؤلف  
دائماً - تبرز بأنها وثائق مثقف من أوروبا الشرقية بدأ  
دراسته للاسلام في القسطنطينية منذ فترة شبابه، وهو  
يريد ان يقيم هذه الأمور بعد عشرين سنة في روسيا. كل  
هذا المشروع جرى بين القرنين السابع عشر والثامن عشر  
(بين ١٦٩٣ و ١٧١٩). باعتباره كاتباً «لنظام»، كان  
كانتيمير في حالة خاصة تمكنه من تسجيل كل شيء في  
ذاكرته منذ اقامته في القسطنطينية، ولكنه لم يعد يتذكر  
المراجع نظراً لفقدانها في روسيا. وهو قد اعترف بذلك  
عندما أعلن ان عمله جرى في ظروف صعبة نظراً لعدم  
وجود الكتب التي كان يحتاجها: «اني اليوم أعيش في  
مكان لست فيه فقط بعيداً عن العرب، بل وانني بعيد  
عن ظل العلم العالي حيث لا نجد اية مكتبة كاملة نجد فيها  
ما نريد» ويضيف في مكان آخر: «في هذه الدولة  
الروسية المتدنية، لا نجد ابدأ كتباً تركية او فارسية، او  
كتباً تلائم عملنا وهدفنا. لقد قشقت عنها في مكتبة الدولة  
الروسية ولكن، رغم احتوائها على مجموعة كبرى في  
الكتب الاخرى، لم استطع ايجادها». لا شك بأن  
متطلبات المؤلف كانت كبيرة: فهو كان يريد مصادر عن  
الاسلام وعن تاريخ الامبراطورية العثمانية، أي مخطوطات  
عربية، فارسية وتركية، وكتب المستشرقين الاوروبيين  
التي عرفها، وربما استخدمها في القسطنطينية. ان هذا

المؤلف، بالرغم من أن البيبليوغرافيا الرومانية القديمة  
تخصص له مكاناً يليق به. ولم ينل هذا المؤلف حقه الا في  
الذكرى ٢٥٠ سنة على ميلاد كانتيمير، عام ١٩٢٣ حيث  
احتفلت الاكاديمية الرومانية بهذا الحدث وظهرت  
بالمناسبة اول دراسة ادبية رومانية متخصصة حول كتاب  
الامير. وقام بهذه الدراسة العلامة ستيفان شوبانو Stefan  
Ciobanu الذي قدم في دورة الاكاديمية في ١١ حزيران  
(يونيو) ١٩٢٤ المخصصة لديتري كانتيمير في روسيا،  
عرضاً مختصراً لكتاب «النظام» بالإضافة الى معلومات  
حول اصول هذا المؤلف للأمير.

وبعد فترة وجيزة خصص له المؤرخ ايون مينا Ion  
Minea مكاناً مهماً في دراسته عن «ديتري كانتيمير -  
الانسان والكاتب والامير» التي ظهرت عام ١٩٢٦. وفي  
عام ١٩٢٧ نشر البروفسور ايران جورجيسكو I.  
Georgescu ترجمة القرآن، الشكل الاول من مؤلف  
كانتيمير.

خلال الثلاثين سنة التالية تغذى تاريخ الادب الروماني  
بهذه المراجع التي ورد ذكرها. وهكذا استعاد بانتيسكو  
P.P. Panaitescu كل هذه المعلومات في التحقيق الوثائقي  
الذي خصصه لديتري كانتيمير: فهو مع ابقائه على الامور  
الاساسية اهتم أيضاً بانتشار كتاب الامير في جنوب شرقي  
اوروبا. لكن دان بادارو Dan Badarau، في كتابه  
«فلسفة ديترى كانتيمير، لا يأتي الا على ذكر «النظام»  
مفوتاً فرصة تحديد موقف الامير تجاه الفكر الشرقي.

وقد جرت سلسلة من المساهمات الرومانية الأكثر  
حداثة لاعادة الاهتمام بالدراسات الشرقية بالنسبة لكتاب  
«النظام» المهم أيضاً بالنسبة للفولكلور والاثنوغرافيا  
البلقانية. وقد اثارت الطبعة الاولى من هذا الكتاب  
باللغة الرومانية تحليلات جديدة من قبل المستشرقين  
الرومانيين. ان ترجمة هذا الاثر الى الرومانية حقق  
الرغبة القديمة بأن جعلت هذا الكتاب قابلاً للانتشار على  
المستوى الدولي، وفي متناول مسترقي العالم أجمع.

ولكن ما هي أهمية هذا الكتاب، أو بالأحرى ما هو

الروماني لم يعطِ أهمية كبرى لترجمة اجريت انطلاقاً من ترجمة اخرى وليس عن الاصل العربي (لقد استخدم بوسنيكوف الترجمة الفرنسية لدورييه A. Du Rier ، باريس ١٦٤٧).

اما الكتاب الذي اعتبره كاتيمير اهم مرجع لمعرفة العقيدة الاسلامية فهو «المحمدية» . وهو يؤكد بأنه كان مرجعه الرئيسي لتفضيل الدين الاسلامي . ما هو المصدر؟ انه مؤلف منتشر في ذلك العصر وهو بعنوان «الرسالة المحمدية» او «المحمدية» ، وهو يعرض العقيدة الاسلامية انطلاقاً من القرآن والسنة . ان كاتب هذا الشعر التعليمي ، يزيد اوغلو محمد ، كان ابن شيخ يزدي هو صلاح الدين ؛ لقد ولد في تركيا في كاديكيوا وتلقى دروسه في بلاد الفرس في ترانسوكسانيا وتابع في انقرة فيما بعد على يد الحاج بيرم . وقد اسس حلقة صوفية (زاوية) في غاليبولي حيث اعد كتابه (الذي الحجز عام ١٤٤٩) ؛ وتوفي هناك عام ١٤٥١ كما يبدو .

رغم اننا لم نستطع الحصول على هذه القصيدة ، فان محتواها نعرفه بفضل عرض فون هامر - بورغستال Von Hammer-Purgstall في Geschichte der Osmanischen Dickkunst . لقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة وكان من السهل حفظه لأنه كتب شعراً . لذلك من المحتمل ان يكون الامير قد حفظ مقاطع طويلة منه غيباً ، وان يكون شكل مصدره الرئيسي للمعلومات حول التقاليد الاسلامية ، فضلاً عن انه ، في عصر كاتيمير ، كان يشكل وسيلة تعليمية .

ومن المصادر الشرقية الاخرى «لنظام» التي استخدمت لصياغة الفصل الرابع ، عن «التعاليم المحمدية» هو كتاب Vasiyet name للعلامة التركي محمد ابن بير علي برغلي (١٥٢٢ - ١٥٧٣) . وكتب «درر الايمان» ، غير معروف مؤلفها ، - وهي قد ذكرها كاتيمير غيباً عندما قال (« سنعرض بعض مقاطعها التي نذكرها ») . في الفصل الثالث من كتابه يعطينا المؤلف عينة عن الادب اللاهوتي حول نهاية العالم . والمقاطع التالية

المطلبات مبررة فعلاً لأن كاتيمير هو من «الذين يعتبرون ان العلم ليس في الروح ، بل في الكتب والمكتبات» . الا ان الظروف أبت إلا ان يكون عمل العلامة الروماني في روسيا مرتكزاً على الذاكرة وليس على الكتب ، اننا نشعر بقراءتنا «لنظام» بقلة الوثائق والمعلومات ، ولكن كاتيمير يظهر قدرة فائقة على التأليف بالاستناد الى عبقرته التي استطاعت ان تستغل المصادر القليلة المتوفرة الى ابعد حد .

ولا بد من التمييز ، بالنسبة للمصادر ، بين التي يذكرها عن ذاكرته والاخرى التي كانت مجوزته واستعاد منها مقاطع معينة ومراجع دقيقة . ان اي مؤلف عن الاسلام لا بد ان يكون القرآن قاعدة له ، لذلك فهو يذكر باستمرار في كتاب «نظام الديانة المحمدية» . لقد راجع كاتيمير القرآن باصوله ؛ فهو كان يعرف ولا شك بعض الترجمات - وعلى الاخص ترجمة مارانشي Marracci . كذلك فهو يستخدم كتابة الاسماء بشكل قريب جداً من اصولها ، كما انه رفض الاسم اللاتيني للقرآن Curanus . ولكن الاستشهادات التي وردت تدفع بالنظر الى ان الكاتب لم يكن لديه نسخة اصلية او مترجمة عن القرآن الكريم عندما كتب كتابه . لذلك فإن المراجع للسور والآيات القرآنية يجد أنها بمعظمها مغلوطة ، مما يجعل معانيها تقريبية او خاطئة احياناً . انها حال الذي يعتمد على ذاكرته التي قد تخونه في مثل هذه الاستشهادات الدقيقة . إلا أن كاتيمير يشير الى ضرورة قراءة القرآن وحفظه عن ظهر قلب إذا أمكن .

من السهل ان نتأكد بأن النسخة العربية للقرآن لم تكن لديه للتحقق من استشاداته . مع انه عندما كتب «النظام» كان بإمكانه استخدام الترجمة الروسية للكتاب الكريم التي قام بها بوسنيكوف P. Posnikov ونشرت في سان بطرسبرج عام ١٧١٦ . ان نقده لكتابة اسم Alcoran قد تعني هذه الترجمة بالذات . وبما اننا لم نجد ترجمة بوسنيكوف لم نستطع التأكد من ان مراجع كاتيمير تأتي من هذه الترجمة الروسية للقرآن . ولكن يبدو ان العلامة

مأخوذة من «الاسرار في الرموز» وهو كتاب باطني ذو تأثير شيعي، لا شك بأنه تعرف اليه في القسطنطينية حيث كانت تنتشر مثل هذه النصوص (كان مجوزة السلطان احمد الثالث مخطوطة منه)، ولا شك انه كان معه نسخة منه في روسيا لأنه يذكر مراجعه بالنص. اما فيما يتعلق بالنص الشعري العربي، الفارسي والتركي (النظام فصل ٦، ٣٦) يرتكز كالتيمير على كتاب لم نستطع ايجاده هو: «الشهادة» الذي يحتوي على «اشكال وانواع من الاشعار المسماة بحر، اي واسعة».

وعلى الرغم من ان كاتب «النظام» يذكر كتباً شرقية اخرى، فإن مصادره العربية والتركية يبدو انها تتلخص بالمراجع الستة الوارد ذكرها. هذا لا يتبع من الاعتقاد ان معلوماته تعدت هذا الاطار، لأن كالتيمير قد استند الى الكتب الاوروبية عن الاسلام وان كان لا يذكرها دائماً.

والكتاب الاساسي في عصره عن العقيدة الاسلامية، الذي لا يزال مفيداً للاختصاصيين حتى يومنا هذا، هو Refutatio Alcorani للاهوتي الايطالي لودفيكو مارانتشي L. Marracci، معرف البابا Innocent XI، وهو مستعرب مشهور؛ ظهر الكتاب في Padoue عام ١٦٩٨. انه معد للمبشرين الكاثوليك في الشرق الاسلامي لكي يقارعوا باللغة العربية العقيدة الاسلامية، وهو يحتوي على معارف صلبة عن القرآن ويتضمن الاصل العربي وترجمة القرآن الى اللاتينية، حيث يعالجه فصلاً فصلاً بصورة صورة، كما انه مسبق بأربع مقدمات تعالج حياة محمد وأصل القرآن والفرق الاسلامية. ان عنوان الكتاب وعناوين فصوله تختصر محتواه؛ ونجد في ذلك تطابقاً مع «النظام». ان حياة محمد كما يعرضها كالتيمير تشبه نصوص مارانتشي، وهي لا تفتقر عنها الا ببعض التفاصيل. ونجد هذه المطابقة ايضاً في استعراض القرآن وفي تعداد الفرق. وهنا نعتقد ايضاً ان كالتيمير استخدم ذاكرته لاستخدام معلومات مارانتشي. فهو لم يكن يملك كتاب العلامة الايطالي عندما كتب «النظام»، لأن الكتاب يحتوي على النص العربي للقرآن الذي ينقص كالتيمير كما رأينا.

ان اعادة تكوين المصادر المؤلف يعترف بأنه يكتب دون الاستناد الى كتب هو امر بالغ الصعوبة، خاصة وانه يعلن: «انتي قرأت الكتب خلال صباي من اجل تعلم اللغات الشرقية، او سمعت عنها في لقاءاتي مع اناس مقربين من السلطات العثمانية، وهي جميعها الآن تحونتي الذاكرة بشأنها». ونظراً للظروف التي كتب فيها ليس غريباً ان لا يذكر الامير مارانتشي. وهو كما يبدو نسي حتى اسم الكاتب الذي استخدمه بشكل واسع وذكر نصوصه، مثل سير بول ريكو Sir Paul Rycout. لقد كان كالتيمير يعرف الترجمة الايطالية لكتابه The present state of the Ottoman Empire (لندن ١٦٦٧) الذي ظهر عام ١٦٧٢ في Padoue عن Coustantin Belli. ان الطريقة التي يستخدمه بها تبدو غريبة (فهو قد ذكر المؤلف مرة، واستخدمه عدة مرات دون ذكره). فهو مثلاً يذكر مقطعاً اتبعه بمساحة بيضاء ليذكر اسم المؤلف الذي نسيه.

اما في النسخة الروسية فان هذا المؤلف يصبح احد المسيحيين الذي استخدم بدوره كتاباً مجهول المؤلف. ما هو تفسير هذه الطريقة ولماذا يؤكد كالتيمير ان تولستوي يمكن ان يكون كتب الروسية مترجماً عن الإيطالية؛ قد يكون على علم بأن تولستوي ترجم هذا الكتاب من البولونية عام ١٦٧٩، كما يدل على ذلك عنوان الطبعة الروسية التي وان كانت انتهت عام ١٧٤١، الا انها بدأت في عهد بطرس الاكبر.

بمعزل عن هذه الامور، من المؤكد ان ريكو أفاد كثيراً كالتيمير خاصة بالنسبة للمعلومات المتعلقة بمجملات الدراويش المختلفة وبالفرق الاسلامية. فهذا المصدر كان واسع الانتشار (١٢ طبعة انكليزية، ١٤ فرنسية، ٤ ايطالية، ٣ المانية، ٢ هولندية، ١ بولونية ١ روسية). واذا لم ينح هذا الكتاب من انتقادات دودلي نورث Dudley North وبيار بايل Pierre Bayle، فإنه استخدم مرجعاً للوك Locke ومونتسكيو Montesquieu وراسين Racine وليبنز Leibniz وجيبون Gibbon واديسون Addison. اما كالتيمير، باستخدامه ريكو لم يأخذ

معلوماته كما هي : فإنه أجرى اختياراً وتصحیحاً لها بفضل معلوماته الخاصة .

ونظراً لقلّة مصادره ، استعان كاتتيمير من مؤلف سيت كالفيسوس Seth Calvisius Opus Chronologicum ببعض الامور الدقيقة حول تواريخ ميلاد ووفاة وهجرة النبي ، وحول بعض الوقائع المتعلقة بولاية الخليفة عمر . ومن خلال كتاب كالفيسوس يذكر « النظام » اسم المؤرخ اليهودي البرتغالي ابراهام زكوتوس لوزيتانوس Abraham Zacutus Lusitanus . ولكن بالتأكيد لم يستغل كاتتيمير كفاية كل المعلومات المتعلقة بالتاريخ العربي او العثماني الواردة عند العلامة الألماني .

وقد ساهم كتاب الدبلوماسي والمستشرق الفرنسي فرنسوا مينينيان Francois Mesgnien Lexicon turcico-arabico-persicum بضبط معاني الكلمات العربية . ولكن رغم تقييمه لهذا المؤلف الكبير لم يعتمد كاتتيمير كتابة الحروف العربية التي يقترحها .

ومن أجل تأكيد خبرية شعبية شفوية حول قداسة مؤسس فرقة الدراويش البكتاشيين ، استعمل كاتتيمير كتاباً لمؤلف مسيحي بقي غير معروف الاسم ، وهو قد وقع في الاسر خلال معركة فرنا Verna وعاش فترة من الزمن في بلاط القسطنطينية بمخدمة السلطان بايزيد (هنا يوجد خلط مع السلطان مراد الثاني الذي انتصر على التحالف المسيحي عام ١٤٤٤) . هناك مجموعة من المؤلفات الاوروبية في القرنين الخامس والسادس عشر حول الاتراك يعود الفضل فيها لأسر واضعها عند الاتراك . من هذه الزاوية تعتبر مراجع كاتتيمير مقبولة خاصة وان محاولته تتطلب مجهوداً كبيراً في غربلة هذه المراجع والتدقيق بها رغم الابهام الذي يكتنفها .

ولا بد ايضاً من ذكر الفيلسوف الافلاطوني الجديد اليوناني في القرن الثالث فورفوروس Porphyre الذي ركز موقف كاتتيمير تجاه الاسلام وقد ذكر في « المقدمة الموجهة للقارئ » .

اما عندما يريد كاتتيمير اجراء مقارنات مع القرآن فإنه يذكر التوراة . ثم يستعين باليونان او اللاتين (ارسطو ، ابيكتات ، مؤسسات جوستينيانوس ، جوفنال ، ليبانوس ، لوكريس) او بالفارسي سعدي بالنسبة للتعبير الفلسفية او الاخلاقية . ان هذه النصوص تذكر بشكل تقريبي وأحياناً دون ذكر الكاتب ، كما هو الحال بالنسبة لسعدي . ومن الادبيات الاوروبية التي لها علاقة بموضعه (خاصة الكتابات الهجومية ضد الاسلام والامبراطورية العثمانية) لقد عرف كاتتيمير وذكر اعمال ثيوفيلاكث سيموكات Théophilacte Symokates أو غيره دون ان يستخدمها . ومن بين المصادر العلمية يشير الى ابن سينا واوكليد وغاليان وهيرودوتس وابقراط ولقمان وبتوليمي وسترابون وكويرنيك ، ولكن يذكرهم دون مراجع محددة : حتى ان عنوان مؤلف الفلكي البولوني الشهير ذكر بشكل غير صحيح ، ويفتش كاتتيمير ايضاً عن امثلة في كتب عربية وفارسية مثل : همايون ، اسكندر ، شمشون .

واخيراً يستعيد كاتتيمير في كتاب « النظام » معلومات تتعلق بمعطيات ذات طابع ديني ، انامي ومؤسي اخذها عن كتاب Incremēta atque decremēta Aulae Othomanicae ، حيث يعرض لثروحات تعابير تركية ، عربية وفارسية ، وحتى انه يعرض احياناً بعض الاقاصيص مثل قصة خسارة مصطفى المزيف ، او ذكريات شخصية مثل جداله مع اسد افندي حول موضوع انقسام القمر . ان مقارنة المؤلفين تدل ان كاتتيمير اخذ من Incremēta كل ما يتعلق بهيكلية « النظام » ؛ وما تركه جانباً مثل المعطيات المتعلقة بالتنظيم العسكري والاداري ، كان يستخدم بلا شك لكتابه الثاني الذي كان يخطط له حول الحكومة العثمانية . الا ان هذه الاستعارات ليست حرفية ، فهي إما موسعة وإما محوورة جزئياً .

ان كاتتيمير يستند الى ذكرياته الشخصية وملاحظاته وتجاربه التي لها المقام الاول في « تاريخ الامبراطورية العثمانية » وفي « النظام » . لا شك بأن نظرتة للعقيدة

والحضارة الاسلامية تكونت بعد دراسات وقراءات عديدة، وبالدرجة الاولى بفضل المعرفة المباشرة لعالم قضى فيه زهاء عشرين عاماً. في هذه الحقبة من الزمن لم يكتفِ بتسجيل نمط الحياة والعادات والمؤسسات الاسلامية، بل تغفل ايضاً الى جوهر التعليم القرآني الذي استطاع مقارنته بالعقيدة المسيحية. اما احاديثه مع اسد افندي فإنها مذكورة في « تاريخ الامبراطورية العثمانية » وفي « النظام ». وقد دلت شهادات اخرى ان مثل هذه الاحاديث بين المثقفين الاتراك والمسيحيين كانت مألوفة في ذلك العصر. ان الاحداث المهمة مثل مقاومة القديس نيقولا دو كاربنسيون لترك ايمانه بالقوة شكلت لفترات طويلة مواضع احاديث المسيحيين القسطنطينيين: فإن غالان Galland ١٦٧٢ و كانتيمير ١٧١٩ يعطيان تفسيراً خاصاً لهذه الحالة. و احياناً يتعلق الامر باحداث شهدا بنفسه: مثل تخلص « الراية المقدسة » في فينا عام ١٦٨٣. لقد كان مسموحاً للأمرير الدخول الى التقيية وحضور الاحتفالات الخاصة مثل رقص الدراويش الموالي. وقد فحص الاثار التاريخية في القسطنطينية محاولاً اكتشاف الآثار الرومانية- البيزنطية تحت الطبقة الاسلامية الحديثة. وكان يقوم في مناسبات عدة بتفسير هذا العالم الجديد للاروبيين الذين يرون على العاصمة العثمانية بمهمات تجارية او دبلوماسية او الذين كان يلتقيهم في زيارته للسفارات. ان جزءاً من هذه العبقريية نجد في « النظام ». وهذه الطريقة نستطيع ان نقيم الملاحظات العديدة والذكريات الكثيرة والشهادات المباشرة للامير، التي كان سوف يستخدمها في كتابه عن « الحكومة العثمانية » الذي لم يتعد كونه مشروعاً.

وقبل ان نختم القسم المخصص لمصادر كانتيمير يجب ان نذكر المعلومات المزيقة المأخوذة من الاساطير والخرافات الشعبية. ان الحلم النبوي لعمان الاول الغازي مؤسس سلالة السلاطين الاتراك يذكر في بداية « النظام ». لكن كانتيمير يتحدث ايضاً عن الاعتقادات الشعبية ويذكر بعض النوادر عن اصل الشاربين عند آدم الخ. . ما عدا هذه التفاصيل التي تهدف، كما قلنا مراراً، الى متعة

القارئ الاوروبي وخاصة بطرس الاكبر، فإن كانتيمير يبدو حساساً تجاه التقاليد الشعبية.

ما هو اذن موقف الكاتب المستند الى هذه المعلومات، تجاه الاسلام؟

فإذا توقفنا على تصريح كانتيمير في مقدمته، يبدو ان هدفه ليس علمياً، بل دعائياً؛ وقد يكون للكتاب مقاصد جدالية، وهذا ما يجعل الكاتب غير موضوعي ومنحاز.

الا ان الذين درسوه لاحظوا بالنسبة « للنظام » ان الكاتب يبدي تعاطفاً مع موضوعه، فموقفه هو احياناً موقف الخصم تجاه الحكومة ومبادئها الدينية والسياسية ولكن ليس تجاه الشعب التركي الذي يكن له المودة. الا ان موقف كانتيمير العام تجاه الاسلام كان موقفاً مرناً بالفعل.

بالنسبة للاعتقاد الاسلامي لا شك بأن موقف كانتيمير يخلو من الالتباس: انه موقف المسيحي الذي لا يستطيع قبول دين حقيقي خارج الاناجيل. من هنا اعتراضه على طابع الوحي بالنسبة للقرآن.

ان موقف كانتيمير تجاه العقيدة الاسلامية هو موقف المسيحي كما يدل عنوان الكتاب على ذلك (نظام الديانة المحمدية). ان مثل هذه التعابير تدل على النظرة المسيحية التي تشوه جوهر الاسلام. في الواقع ان المسيحية المرتكزة على فكرة تجسد المسيح تأخذ اسم مؤسها، اما الاسلام الذي جوهره فكرة الله العملي الذي اوحى بالقرآن، فلا يعتبر محمد الان نبياً وسيطاً.

ومن عناصر النظرة المسيحية للاسلام في « النظام » ما يرد فيه حول العجائب والقديسين عند المسلمين.

الا ان كانتيمير لا يكتفي باعتبار الاسلام عقيدة واردة في القرآن وتعاليم الفقهاء، فهو يعتبره كظاهرة اجتماعية ويصفه بالنسبة لسلوك وافكار الذين يعتقدونه. من هنا يأتي التركيز على الاختلاف بين كلام القرآن وافعال المؤمنين. بمعنى ان انتقادات الكاتب لا تتناول دائماً التعاليم الاسلامية بحد ذاتها، بل غالباً الشكل الذي

خلال نظراته الحديثة، فهو يعترض على الجانب الاسطوري  
أكان ذلك في المسيحية ام في الاسلام .

وفيما يتعدى هذه الاحكام، كان كانتيمير يتمتع بكامل  
حريته الفكرية تجاه الاسلام . وهذا ما دفعه الى قول ما  
يلي : « لنقل الحق ولنقيّم العمل الجيد، حتى ولو كان الأمر  
يتعلق بأكبر عدو لنا » .

ان الامير، من بين أقرانه الاوروبيين، وفي عصر،  
كان الأفضل الذي يستطيع الحكم على العقيدة الاسلامية  
بعدالة . بالنسبة « لصفات الله » يقول « ان المحمديين  
يتبعون الفقه السلي وليس الفقه التأكيدي » - ان هذا  
الحكم فريد من نوعه بالنسبة لمستشرق اوروبي في القرن  
الثامن عشر . ان التمييز بين الفقه السلي والفقه التأكيدي  
لم يكن مقبولاً في ذلك العصر الا من قبل المفكرين  
الارثوذكسيين الوحيدين القادرين على ادراك التشابه بين  
العقيدتين الاسلامية والمسيحية ذات المذهب الشرقي .

من المعلوم عامة ان العقيدة المسيحية الشرقية تعتبر  
ان هناك تميزاً جوهرياً بين اللاهوت التأكيدي واللاهوت  
السلي، هذا التمييز يأتي من عدم امكانية وصف الله  
المخالق بصفات لا تلائم الا مخلوقاته . فالقول عن الله بأنه  
صالح، قدير، محسن الخ .. يعني انزاله الى مستوى  
مخلوقاته . فهذا سوف يؤدي الى تأكيدات قادت الى  
اختلافات وجدالات في فكر القرون الوسطى، تأكيدات  
من نوع : « الله ليس كبيراً، وهو ليس صالحاً » الخ . وقد  
أشار الجدل نفسه في الفكر الإسلامي شكاً : ألا يؤدي  
استعمال الصفات لله الى تخفيض جوهره؟ أليس من  
تناقض بين الصفة والجوهر؟ وبالنتيجة ان صفات الله  
« أبدية كائنة في جوهره بالذات وهي ليست الله، وليست  
شيئاً آخر غير الله »؛ فالمشكلة إذن « الإبقاء على الوحدة  
الداخلية لله » من جهة، « وتبرير الأوصاف المعطاة له في  
القرآن »، من جهة أخرى . نشير بأن أحد التيارات المهمة  
في الفكر الاسلامي تعتبر ان هذه الصفات غير كاملة،  
خاطئة، وحتى مستحيلة . ان مثل هذا الموقف يقرب  
الفكر الاسلامي من اللاهوت المسيحي السلي، وهو ما

يقول به أتباعه مع ما يتضمن ذلك من تحوير وتشويه من  
أجل ايجاد الأعذار فيما يتعلق ببعض الممارسات المنوعة :  
الصيد، الفخامة في اللباس، الربا، السكر، الفجور،  
الخ ...

إلا ان الكاتب بعزل عن ايمانه يتخطى هذه الأمور  
ليصل الى رؤية واقعية للاسلام . انها نتيجة حسه وتجربته  
الشخصية، يضاف اليهما نظراته الانسانية للقيم، التي لم  
تستطع حجج المجادلين الغربيين ان تتخطاها . لقد برر  
المستعمرون الاوروبيون دراساتهم في القرن الثامن عشر  
بأنهم كانوا يعملون لخدمة اللاهوت . لكن العلامة الروماني  
اشار الى الاهمية الثقافية العامة للقيم الاسلامية، وذلك  
قبل رايشك الكبير Reiske الذي أعلن خلال القرن نفسه :  
ولكن بعد كانتيمير، ان دراسة الثقافة العربية لا تتناول  
فقط « فقه اللغة » بل « التاريخ والجغرافية والفيزياء  
والطب » بشكل عام .

واننا نجد عنده تحذيراً للقارىء في التسرع لأخذ  
المواقف المناهضة للاسلام . ان دحض العقيدة الاسلامية  
باسم الدين المسيحي له نفس قيمة دحض الانجيل باسم  
القرآن : « لأن ما نعترف به من حقيقة في الانجيل نحن  
المسيحيون، يعترف به المسلمون فيما يتعلق بحقيقة القرآن ،  
وهنا تتساوى الحجج، بما لا يؤدي الى شيء من الناحية  
المنطقية » . كذلك « اذا اخذنا الامور عن قرب واخذنا  
بالاعتبار فقط الايمان التاريخي والانساني ... فلن  
شهادات المؤرخين المسيحيين لا قيمة لها تجاه شهادات  
المحمديين، وخاصة تجاه كل الذين لا يقبلون لا ديننا ولا  
دينهم ؛ لأن شهادات الاعداء والخصوم يرفضها رجال الفقه  
لأنها تعتبر كاذبة » . انها دعوة من قبل الكاتب لاعتبار  
الاسلام ليس من زاوية الخصم بل من موقف ارفع دون  
انحياز نقدي : ان كانتيمير يحاول ان يفتش على التناقض  
ضمن النصوص . وهو على الصعيد العقلي، خارج المجال  
الديني، يقيم تقيماً ايجابياً الامور الفلسفية والاخلاقية  
والعلمية والادبية والفنية في الاسلام .

الا ان بعض الاعتراضات عند كانتيمير توجه من

أدركه كاتنيمير بدقة متناهية .

وتناول كاتنيمير أيضاً مشكلة أخرى مهمة في الفكر الاسلامي : ألا وهي التمييز بين الوحدوية وصفات الله - هذا الجدال استقطب العديد من الفقهاء والفلاسفة المسلمين خلال قرون عديدة . ان الصعوبة تكمن في التعريف الصحيح لجوهر الله . إذا توقفنا عند المنطق واعتبرنا ثباته دون تغير وانه متميز جذرياً ، فإننا ندخل الكثرة في جوهر الله ، ونعطي لله خصائص مشتركة مع خصائص مخلوقاته . فمن أجل تجنب مثل هذه التعريفات غير المتوافقة مع الطبيعة الالهية هناك حلان كما نعلم : ان المعتزلة أفرغوا مفهوم الله من كل صفة ايجابية واكتفوا بالتأكيد ان الازلية خاصة بالله ، أي ان هناك ترادفاً بين الله والازلية - ان هذا أبعد فكرة التمسك عن عقول الناس الذين فهموا بعض نصوص القرآن بحرفيتها معتقدين ان لله وجهاً ويين ، وهو يشي الخ . . . أما فقهاء الأشعرية المستندين على النصوص القرآنية فيعتبرون بأنه من الملائم قبول الوحدة الكاملة لله والقبول بتعددية صفاته الايجابية (مثل الحياة والقوة والمعرفة والارادة) دون محاولة التعمق في طبيعة العلاقات بين هذه الصفات والوحدة الالهية . وتبنيته وجهة النظر الاشعرية عمد الغزالي الى شرحها مبيناً ان الفلاسفة يعتبرون ان الصفات الالهية لا تغير شيئاً في وحدة الله الكاملة ، وانه لا يمكن ادخال التعددية في هذه الوحدة : فعندما نقول ان الله هو الاول لا يعني ذلك اننا نحدد بالنسبة للكائنات التي تبعته ، بل اعتبار وجود هؤلاء منبثقاً منه ، وبأنه سببهم الاول . . .

ان كاتنيمير بمواجهته هذا الموقف في الفكر الاسلامي يبدو انه يؤيد المعتزلة الذين يؤكدون الوحدة بين الجوهر والصفات الالهية .

لقد كان الامير يجب ان يجد عدداً اكبر من نقاط التشابه بين العقيدتين الاسلامية والمسيحية ، من اجل اعطاء القارئ الاوروي إمكانية أفضل لإدراك المعاني العميقة للاسلام . الا ان ذلك كان مستحيلًا : « فالاسلام له علم هو التفسير الذي يعالج تفسير القرآن ، وله علم الحديث

الذي يعالج السنة التي تعود الى النبي محمد ، فهو ليس له فقه ايجابي » . والكلام يهدف « للعمل من أجل الحفاظ على الدين ومن أجل تدعيمه » - فالامر لا يتعلق إذن إلا بتبرير العقيدة الاسلامية . أما عن الدخول الى المعتقدات ومحاولة فهمها « ينبع علينا العوض في هذه الهوة والاهتمام بما يستحيل على العقل إدراكه » .

وعند القراءة المتأنية للقسم الرابع من « النظام » نجد عناصر أكثر لتحليل معمق لمعارف كاتنيمير حول العقيدة الاسلامية . هناك امر لا شك فيه وهو ان هذه المعارف كانت غنية ومتقدمة بالنسبة لمثقف علماني اوروي ، لم يكن الاسلام الموضوع الوحيد لدراسته كما فعل ذلك بعض معاصري الامير P. Pococke , d. Herbelot , Marracci . من المؤكد انه في احدى فترات تكونه كانت معارفه اوضح واكثر . فالدلائل على انها بدأت تحي كثيرة في الكتاب بالذات (لقد قال كاتنيمير بأن المعلومات التي تكونت لديه خلال ٢٢ سنة عاشها الى جانب الباب العالي « خرجت تقريباً من الفكر رغم انها ترسخت فيه عندما اكتسبها » . واحياناً يعلن بوضوح انه لا يفهم بعض المسائل مثل مسألة صفات الله المعالجة في « المحمدية » اذ يقول « رغم اني قرأتها بكل تأن ، فإنني اقول صراحة بأنني لم افهم منها شيئاً » .

فإذا كان سان سيوبانو St. Ciobanu او بانايتسكو P.P. Panaitescu اللذين يعتبران « النظام » كنزاً من المعلومات الانامية والتاريخية ، لم يتسالا عن صحة المعلومات ذات الطابع العقائدي الواردة في الكتاب ، فإن فون هامير - بورغستال Von Hammer-Purgstall انتقد كاتنيمير بعنف وذلك حول أمور متعلقة مثلاً بولادة النبي في المدينة ، واعتبار فاطمة اخته ، واعتقال علي من قبل عمر وعثمان ، والحلظ بين أبو جهل وابو طالب ، الخ . .

من الناحية الوضعية الصرفة تبدو مثل هذه الاخطاء خطيرة جداً ، ولكن يجب قياسها مع اهمية وضخامة هذا المؤلف مع اخذ الظروف بعين الاعتبار . ما عدا ذلك فإن صورة الحضارة الاسلامية التي يعطيها « النظام » للقارئ

هي على العموم صحيحة في خطوطها الكبرى كما في تفاصيلها. هناك تطابق مثلاً بين كانتيمير وغيره حول مسائل الرؤيا الاسلامية وحول لغة القرآن. من المؤكد ان كانتيمير كان يملك موضوعه بشكل جيد، حتى انه اجرى مقارنة صحيحة بين علم الفلك العربي وعلم الفلك اليوناني. ان القارئ اليوم عندما ينتهي من قراءته يمكنه ان يعتبر نفسه مالكاً لمعلومات اساسية حول العقيدة الاسلامية والنظام الثقافي الذي ولدته.

وتجدر الاشارة ان كانتيمير وهو يكتب «النظام» لم يكن يهدف الى ارضاء غروره المعرفي ولا الى احياء ذكرى السنوات الاولى لشبابه التي عاشها في القسطنطينية. لقد استطاع الامير ان يوفق بين موقفه كعلامة اوروبي مسيحي والعلم الاسلامي برؤيا صادقة خالية من الملامح التبريرية والمجدالية للمثقفين الاكليروس، من معاصريه. انه الى حد ما قد ترك المجال حراً أمام النقد العقلاني للدين بشكل عام.

لكن كانتيمير يذهب الى أبعد من ذلك: انه يعبر صراحة عن احترامه لبعض أوجه الروحية في الثقافة الاسلامية، وهو بذلك يدل على موضوعيته وعدم انحيازه. فهو يقدر العادة التي تقضي بتحرير السجناء المباعين بعد سبع سنوات من العبودية، مع ترك الحرية لهم للاحتفاظ بايمانهم الخاص. وهو يشير الى انسانية ومضائية الاثراك. وهو يعتبر ان الدراويش يطبقون الاعمال الصالحة فعلاً وليس بالتجرح، وعلى المسيحيين ان يتعظوا بهم. فالامير يعلن دون مواربة «من هذه الفضائل الفلسفية والممارسة الفلسفية في الاعمال الصالحة التي نجدها عند الدراويش علينا ان نتعجب». وهو يشير الى إعجابه بصفات القرآن المكتوب بلغة «عربية عميقة من المستحيل تقليدها وتأويلها وخاصة فإن تكلمها يفوق قوانا». ان المعرفة عند الشعوب الاسلامية ليست بالمستوى نفسه في شتى المجالات، ولكنه يبدي إعجابه الالامحدود بفنونهم: «تعليم الانشاء» أو «كيفية كتابة الرسائل الشعرية بأسلوب جميل»؛ كذلك الخط العربي، بقواعده الفنية التي تجعله

قادراً على تحقيق أعمال «لم يستطع تقليدها أحد بين الناس» والفن الشعري المتطور جداً بحماليه ومعانيه. «ان شعراء الشعوب الشرقية، يقول كانتيمير، يتقدمهم في هذا الفن فاقوا جميع الشعراء» والفنانين بالنسبة للشعراء الاوروبيين أو القدماء، ان كل الذين يعرفون هذه اللغات وقرأوا الشعراء العرب والاثراك والفرس يدركون هذه الاسقية. «ان الموسيقى الشرقية تتجاوز فعلاً الموسيقى الغربية» «وفي نحت الحجارة وللرخام انهم يقومون بعمل منسق تنسيقاً جيداً». اما تصويرهم «وان كان غير كامل يستحق الاطراء، فإنه ليس بشعاً». وقد وصل فن تزيين الكتب الى مستوى كبير من الاتقان والانتشار. اما من حيث الخطابة يقول الامير «يمكنني ان اؤكد بأن الشعوب الشرقية ليست دون الشعوب الغربية، لانهم من طبيعتهم يتجهون نحو الفصاحة... اذا سمع احدهم بعض الدعاة المسلمين يلقي عظة، خاصة عندما يتحدث عن الفضائل الاخلاقية والرذيلة، فإنه سيقول بأن الذي يتكلم هو ديموستين اليوناني او شيشرون اللاتيني يلقي خطاباً باللهجة التركية». ان كفاءتهم تكمن في حدة ذكائهم وفي «غنى كنوز الكلمات والانشاء التي لا تفتى في اللغات العربية والفارسية والتركية»، وايضاً في «سهولة وغزارة العبارة بحيث ان كل الخطبة يبدو انها تتدفق من فم الخطيب شأن تدفق النبع».

ان انتقاء مثل هذه الاطراءات الموزعة في كتاب «النظام» يجعل من مؤلف كانتيمير احد اجل الاناشيد من قبل مثقف اوروبي يفهم الثقافة الاسلامية. ولكن كتاب الامير يجب ان ينشر في بلد، رغم انفتاحه على برنامج واسع من الاصلاحات الحديثة، يبقى خاضعاً للمسيحية الارثوذكسية المتشددة التي يدافع عنها سينودس الكنيسة الروسية، التي تحتفظ برقابة الكتب المطبوعة وعليها ان تعطي موافقتها من اجل الطباعة. لقد استطاع كانتيمير نتيجة عزته وحماية القيصر له ان يستفيد من موقعه ضد اعتراضات المراقبين الرهبان دون ان يغير بخطوطه.

ليس هذا كل شيء: يمكننا الذهاب الى ابعد من ذلك

والاسلامي والتي استعمل عنها كاتنيمير بفضل علاقاته المولوية في القسطنطينية. ان الامير يعطينا تفاصيل عن تعبد الدرويش ساري سالتيك بابا من بخارى الذي كان يكرم بابا داغ في رومانيا انطلاقاً من القرن الثالث عشر (وكان يُسَمُّه بكثير من القديسين المسيحيين: جريس، الياس، نقولا، سيمون وسيريدون). ويشير كاتنيمير الى عطاءات وهدايا الاقاليم الرومانية الى الباب العالي؛ وهو يعرف الاصلاح الضريبي العثماني (التدخل) الذي أدخل في أول آذار (مارس) عام ١٦٧٦ (سنة ١٠٨٧ هجرية)؛ فهو يصف العمود الحلزوني في سباق الخيل في القسطنطينية، وقد يكون آخر المؤرخين الاوروبيين الذين رأوا عمود اركادوس الذي هدم بعد مغادرته العاصمة بقليل بأمر احد الثالث.

يبقى ايضاً دراسة «النظام» من الزاوية اللغوية للأصل اللاتيني وللترجمة الروسية النهائية. فعدا خصوصيات أسلوب ولغة كاتنيمير باللاتينية، إن المؤلف يواجه كاتبه مع مسألة كتابة الاحرف العربية، وهو أمر من الضروري دراسته على حدة. ان الامير يدخل عدداً كبيراً من التعابير الشرقية الى اللاتينية والروسية في عصره.

.....

ان الحكم دون تحيز على «نظام الديانة المحمدية» يضعه في ثلاثة حقول من الاستشراق الاوروبي، وهي الغرب، اوربا الشرقية ورومانيا.

ان «النظام» لا يقدم لمستعربي الغرب الا القليل من المعلومات المجهولة اثناء طباعته. فعلى سبيل المثال نشير الى معلومات غير منشورة قبله تناول وسطاء الوحي فيما يتعلق بنهاية العالم، وهي مأخوذة من «جفر الرموز» او ايضاً استخدام كتاب التعليم الديني «رسالة البرجاوي».

ان اهمية كاتنيمير بالنسبة لغيره من دارسي العالم الاسلامي تكمن في كونه عاش في هذا العالم فترة طويلة ودرسه عن قرب وليس خلال مرحلة او بعثة او سفارة، بل خلال كل فترة شبابه، اي زهاء عشرين سنة.

عندما يتعلق الامر بتقييم عطاء كاتنيمير لمعرفة الاسلام في القرنين السابع والثامن عشر، ولتحديد علاقاته مع هذا العالم الاسلامي. ان كتاب «النظام» يمكن فعلاً من تحديد مقام المثقف المسيحي الارثوذكسي في هذا العالم. لذلك احتفظنا بالمعلومات المتعلقة بالحياة الشخصية والتاريخية التي يحويها الكتاب. وبما انه عمد الى استخدام امثلة ملموسة يعني الكاتب كتابه بأخبار متنوعة بعضها وارد في كتابه «تاريخ الامبراطورية العثمانية» والاخرى لم تكن منشورة. ان هذه الاخبار ذات الطابع الشخصي تتعلق اما بسنوات دراسته، واما بأعماله الموسيقية او التاريخية، واما بتجربته الفنية عن حياته في القسطنطينية عندما كان يجادل العلماء العثمانيين حول بعض النقاط في الفقه الاسلامي. لقد كان يحضر طقوس الرقص عند الدراويش وله علاقات قوية مع اوساط نافذة مسيحية واسلامية يلقي منها الدعم والمعلومات. ان اشاراته لبعض الاحداث المعاصرة تدل الى اي مدى تغلغل في اوساط الرأي العام. فهو يذكر مأساة البطريرك سيريل لوكاريس Cyrille Loukaris ودور الموظف الكبير فاسيل لوبو Vasile Lupu في اقالته وموته. كذلك ان استشهاد القديس نيقولا دو كاربنسيوس يبقى محوراً في ذاكرة السكان المسيحيين للقسطنطينية..

ان شهادات كاتنيمير من الزاوية تعتبر أثن الشهادات، انه مراقب ممتاز، فضولي من طبعه، عنده حس التاريخ، لذلك يدخل الامير في كتاب «النظام» معلومات من الآثار الشرقية، القديمة والوسيطه. ويتحدث عن المساهمات الشعرية للجزيرة العربية قبل الاسلام التي شاركت في انتصار محمد بفضل الصور الاولى من القرآن الكريم؛ انه يتكلم عن الحائط القوقازي الذي تفحصه بنفسه عام ١٧٢١؛ ويشهد حول موضوع علامة تركي غير معروف ينالي اسعد افندي، فله يعود الفضل للمعلومات حول التقاليد المحلية المتعلقة بالنصب الحثي لافلاطون بينار (في منطقة باشاهير - قونيا) الذي لم يقيم من قبل علماء الآثار الالمان والهولنديين إلا بين عامي ١٩٥٣ - ١٩٦٢. انها حفريات قديمة دخلت في التقليد البيزنطي

العربية القائمة على اسس علمية في روسيا. ان المهش ان المؤرخين الروس لا يعترفون لكانتيمير بهذا الدور .

بعد نقص المعلومات في الادب الروسي عن الاسلام بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر فان الاهتمام بالحضارة العربية لم ينطلق الا في عصر بطرس الاكبر. وهنا فان كانتيمير كان دون اعتراض الحخير الوحيد في الدراسات الاسلامية في روسيا اثناء حكم بطرس الاكبر، الذي كان يمنح حمايته للعلماء الذين يلقون الاضواء على العالم الشرقي . بالفعل ان القيصر، اثناء حملته في بلاد القوقاس (١٧٢١ - ١٧٢٢) كلف مترجميه نقل الكتابات التترية والارمنية التي جمعت من خرائب مدينة بولغار Bulgar . ولكن الوحيد الذي قدم له مؤلفاً اساسياً عن الاسلام (النظام) كان كانتيمير . وهو الوحيد ايضاً الذي كان له حظ تقديم كتاب واسع عن الحضارة الاسلامية للعلماء الروس، وذلك بفضل علاقاته الممتازة مع القيصر عام ١٧٢١ - ١٧٢٢ بينما كانت هناك امكانية لعلاقة عائلية بشخص الاميرة ماري ابنة كانتيمير .

ان الدراسات الشرقية تجاهلت لفترة طويلة اعمال كانتيمير . ولكن اعيد تقييم هذه الاعمال اثناء الاحتفال بذكرى ميلاده الثلاثماية (١٩٧٣) وبطبع اعماله الكاملة . وفي الختام نقول ان الثقافة الرومانية تفخر بأن تحيي الحضارة الاسلامية بشخص احد ممثليها الخالدين، وهي تكن لهذه الحضارة كل تعاطف واحترام .

اما، بين زملائه المستشرقين الاوروبيين في القرنين السابع والثامن عشر يتميز الامير بصدق معلوماته وباتخاذ موقف . ان «المكتبة الشرقية» وهو كتاب هيربيولوت Herbelot هي بلا شك منجم بالمعلومات عن الاسلام، اغنى بكثير من «النظام»، ورغم ذلك فيه اخطاء كثيرة لأن هذا المستشرق الفرنسي لم يسافر ابدأ الى الشرق! اما كانتيمير فلم يعتنق الاسلام، بل على العكس كل اعماله تدل على مشاعره المسيحية . ولكن ما هو الفرق في طريقتيه لدراسة الحضارة الاسلامية! ان العلامة الروماني يواجه هذه الحضارة كخصم مستقيم: فهو لا يوافق على القناعات الاعتقادية الاسلامية، لا بل هو يكشف بعض الاخطاء ولا يتوانى عن اطراء كل ما يجده يستحق ذلك في حضارة الاسلام . ان العلماء الاوروبيين المعاصرين كانوا يدرسون هذه الحضارة، من اجل ادراك التناقض بين نجاحات الحضارة الاوروبية والطابع المتخلف للشرق . ان الامير، المنتمي الى أوروبا الشرقية، اي الى عالم عاش فترة طويلة باتحاد مع الاسلام العثماني، حساس تجاه التدهور العسكري والمؤسسي للباب العالي، دون ان يؤيد مقولة التفوق الثقافي للغرب .

ولكن ما هو مدى تأثير «نظام الديانة المحمدية» بالنسبة للمعارف الروسية في عصر بطرس الاكبر تجاه الاسلام؛

ان مؤلف كانتيمير يعتبر نقطة انطلاق الدراسات